أبو القاسم الشابيّ

١٩٠٩ ف - ١٩٣٤ ف

ولد أبوالقاسم محمد بن بلقاسم الشابيّ يوم الأربعاء في الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ هجرياً الموافق الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٠٩ إفرنجي في بلدة توزر بتونس، وهو من أبناء القرن العشرين الذين نشأوا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أيام كان العالم العربي يتعثر بين حاضره الأليم وماضيه القريب المنقوص، ودعاة الإصلاح وأنصار الجديد في تلك الفترة الانتِقالية، إنما يلقون جحوداً وأذى لن تزيدهما سيطرة الغرب على الشرق وشموخه بحضارته، ووثوقه بمصيره، إلا احتداماً وسطوة لدى فريق واسع من الخاصَّة والعامَّة على السواء.

بيد أنَّ الشاعر لم يتردد كثيراً حتى عرف سربه فانضمَّ إليه ثم صدح محلقاً إلى أن اختطفته يد المنون وهو في ريعان الشباب .

كان والده [١] من خريجي الأزهر ومن مُجازيه، وبه درس أولاً فأقام بمصر في أوائل القرن العشرين سبع سنين، ثمَّ درس بتونس بجامع الزيتونة حصل بعدهما على **"التطويع"** [٢] ثمَّ سمي قاضياً شرعياً لسنة من ولادة بكره أبوالقاسم فتصرَّف في قضاء كثير من البلدان التونسية .

كان يقضي يومه بين المحكمة والمسجد والمنزل حيث يتبسط مع أهله، ولقد نشأ أبوالقاسم الشابيّ في سني تكوينه الفكري والخلقي في كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه .

---

١ هو المرحوم الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة شابية التي تمخضت للعلم بعد أن أنجبت في القرنين العاشر والحادي عشر هـ من حملة القلم والسيف، من اكتسبت بمساعيهم مجداًسجله التاريخ التونسيّ .

٢ هي إجازة نهاية الدِّراسة بالكلية الزيتونية في ذلك العصر .

كان رحمه الله صادق التقى، قوي العقيدة لا يخشى في الحق لومة لائم، له غيرة على شؤون الإسلام والمسلمين، تنفعل نفسه بما يجري آنذاك من أحداث بالشرق العربي وطرابلس الغرب أو بلاد الريف . قال الشاعر متحدِّثاً عن أبيه :

"إنَّه أفهمني معاني الرَّحمة والحنان وعلمني أنَّ الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في الوجود" .

لم ينشأ أبوالقاسم بمسقط رأسه، فقد خرج عنه في سنته الأولى ولم يكد يعرفه إلا قليلاً، أثناء قدْمتين أقام فيهما نحواً من ثلاثة أشهر، الأولى عند ختانه في الخامسة من عمره، والثانية زائراً، وقد استغرقت جولة الأسرة عشرين سنة ضربت في بحرها بالبلاد التونسية طولاً وعرضاً، متنقلة من قابس إلى سليانة فتالة، ومن مجاز الباب إلى رأس الجبل فزاغون. وبين هذه المدن من الأميال ما يقدَّر بالمئات أحياناً، وعلى نسبة ذلك اختلاف العادات واللهجات والمشاهد الطبيعية. فلم تكن واحة قابس كبسائط مجاز الباب

يغمرها الحصيد، ولا هذه كبساتين رأس الجبل أو كجبل زغوان يكسوه شجر الصنوبر، ولم يكن حرُّ قابس كثلوج تالة، ولا حياة الفلاحين بمجاز الباب كحياة صياديّ البحر بقابس أو رأس الجبل، ولا طباع أهل الشمال كطباع أهل الجنوب .

هذه مراحل أبي القاسم الشابيّ وشبابهُ عملت على تضخم تجربته، وتدفق شاعريته، وازدهار ريشته، بيد أنَّ الشاعر أفاد ما يفيده كل عابر سبيل متيقظ واعٍ، وإذا ما استقرَّ بأرضٍ كان ربيبها لا ابنها الأصيل . فأطلقه هذا المصير من حدود البيئة الضيقة وأكسبه **"تونسية"** إنسانية الآفاق .

وفي آخر المحرَّم من سنة ١٩٣٩ هـ الموافق١١/ ١٠/ ١٩٢٠ قبل أن يتمَّ الثانية عشرة أرسله أبوه إلى العاصمة التونسية وألحقه بجامع الزيتونة ، وقد تكوَّن سريعاً وقال الشعر باكراً .

كوَّن لنفسه ثقافة اسعة عربية بحتة جمعت بين التراث العربي في أزهى عصوره وبين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق

وسوريا والمهجر، ولم يكن يعرف لغة أجنبية، فتمكن بفضل مطالعاته الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربية من آداب الغرب وحضارته. وكانت أوَّل نشراته في الصفحة الأدبية التي كانت ترتبها **"النهضة"** كل اثنين سنة ١٩٢٦ ف وفي سنة ١٩٢٧ ف ظهر شعره مجموعاً في المجلَّد الأوَّل من كتاب **"الأدب التونسيّ في القرن الرابع عشر"** وفي نفس السنة ألقى بنادي قدماء الصّادقية محاضرة حول **"الخيال الشعريّ عند العرب"** كانت مادَّة الكتاب الذي نشر بنفس العنوان في السَّنة التالية .

وإنَّك لتجده وهو يواصل دراسته ويضع شعره في صميم حركات الإصلاح التي تشتد بها النفوس آنذاك من بعث لحركة الشبان المسلمين ودعوة لتجديد الجهاز الثقافي التقليديّ، ومناصرة لحركة تحرير المرأة ودعوة لتجديد في الأدب تحتل المكان الأوَّل من نفسه، ولقد أحدث كتابه **"الخيال الشعريّ"** الضجة الكبرى،

واستهدف الشاعر بسببه لحملة صحفية عنيفة ثبت لها ثبات الرائد المؤمن بما يقول .

نشرت هذه الآثار في حياة والده، فلم ينكر عليه مذهبه، ووجد الشاعر في تسامح أبيه ما يعزز جانبه، وفي هذه الأثناء (سنة ١٩٢٩ ف) نُكب بوفاة والده المحبوب ولقد رافقه عليلاً من بلد "زغوان" إلى "توزر" مسقط رأسه، وتجرَّع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره، فأضلع [١] بأعباء عائلة كبيرة واختار طريقاً وعراً، فإنَّه - ضناً بحرية الأديب والشاعر - لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر حيث تزوج، ولعلَّ هذا الذي عناه بعضهم حين قال :

" كنَّا نرى في نفسه الزكيَّة مثال القناعة في أفضل ألوانها والطوح على خير وجوهه" .

---

١ أضلع بهذا الأمر : إذا قدر عليه، كأنه قويت ضلوعه بحمله.

وفي السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب، وهو في الثانية والعشرين من عمره، بيد أنَّه رغم نهي الطبيب لم يقلع عن عمله الفكري، وواصل إنتاجه نثراً وشعراً. وقد نُشرت له سنة ١٩٣٣ ف بمجلة "أبولو"[١] المصرية قصائد عملت على التعريف به في الأواسط الأدبية بالشرق العربي.

ولم يكن الشاعر المريض يغادر "توزر" إلا في الصيف ويقصد المصايف الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسيّ ١٩٣٢ ف، والمشروحة ببلاد الجزائر سنة ١٩٣٣ ف وشرع أثناء مصيف سنة ١٩٣٤ ف في جمع ديوانه **"أغاني الحياة"** بنيّة طبعه بمصر فانتسخه بنفسه بحامة [٢] الجريد، مستعيناً ببعض أدبائها لكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى، فقد انتابه المرض بغاية الشِّدة وقصد تونس يوم ٢٦-٨-١٩٣٤ ف وبها توفي سَحَراً يوم ٩-١٠-١٩٣٤ ف ثم

---

١ أبولو : إله الشعر عند اليونان، أو إله الفن بشكل عام ويطلق أيضاً على قائد عربة القمر .

٢ كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بها الأعلاء، ومثلها حامة توزر .

نقل جثمانه إلى بلده (الشابية قرب توزر) حيثُ قبره. (ثم نقل إلى توزر أمام دار الثقافة بين النخيل).

نحيف الجسم، مديد القامة، قويّ البديهة، سريع الانفعال، حاد الذهن تكفكف رقَّة طبعه من غرب عاطفته وحدَّة ذهنه، يراه أصدقاؤه بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية، ويراه من لم يخالطه حيياً محتشماً ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصَّة خلطائه في غير تحرُّج متى اجتمع بهم ويجاهر بها العموم في شعره ونثره، وهو حين ضجر من النَّاس وتبرم بهم عبَّر عن ذلك بصراحة بقوله:

ياربَّة الشِّعرِ غَنِّيني فقدْ ضَجِرَتْ

نفسي مِنَ النَّاسِ أَبناءَ الشَّياطِينِ

تبرَّمتْ ببني الدُّنيا وأعوزَها

في مِعْزَفِ الدَّهر غِرِّيدُ الأرانين[1]

---

[1] الأرانين كلمة غير قاموسية. الشابي يقصد أنواع الرنين (الأصوات التي فيها شيء من النَّغم) .

يـاربَّـة الشِّـعـرِ إنِّـي بـائـسٌ تَـعِسٌ

عَدِمْتُ ما أَرْتَجي في العالَمِ الدّونِ

فـإنَّ قـلـبـي قَـبْـرٌ مـظـلـمٌ قُـبِـرَتْ

فيه الأمـاني فمـا عـادتْ تناغيني[١]

وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية يؤمن بأنَّ لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة ،حاول جهده أن يحققها في أثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً، يقول في قصيدته **"إلى الطاغية"** :

لكَ الوَيلُ يـا صرحَ المظالمِ مِنْ غدٍ

إذا نَـهَـضَ المـستضعَفُونَ، وَصَمّمُوا !

إذا حَـطَّـمَ المـستعبَـدُونَ قـيـودَهـم

وَصَـبُّـوا حَـمـيـمَ الـسـخـطِ أيَّانَ تَعْلَمُ!

أغرَّكَ أنَّ الشعبَ مغْضٍ على قذىً

وأنَّ الفضاءَ الرّحبَ وسنـانُ، مظلـمُ ؟

---

١ ديوان أبي القاسم الشابي ٦٤/ ١٧٥ .

ألا إنَّ أحـــلامَ البـــلادِ دفـينـــةٌ،

تُجـمـجـمُ في أعمـاقِـهَـا مـا تُـجَمْجِـمُ

١ وفي قصيدته "إرادة الحياة" يقول : ١

إذا الشَّعْبُ يَوماً أرادَ الحيـاة

فـلابُـدَّ أَنْ يَسْتجيبَ القـدرْ

وَلاَبـدَّ للَّيـلِ أنْ ينـجلـي

ولابـدَّ للقيـدِ أَنْ ينكـسِـرْ

ومَنْ لم يُعَانِقْهُ شَوْقَ الحَيـاةِ

تبـخَّـر في جَوِّهَـا وِانْدَثَـرْ

---

١ ديوان أبي القاسم الشابي ٦٤ف/ ٤٠٦ .